سلسلة الرسائل (١٤)

مكة حرسها الله تعالى/١٤٤٣هـ

الاستغفار وفضله

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ
مقبل بن هادي الوادعي
حفظها الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد.

فمرحبًا بأخواتي في الله وبناتي وأهلًا وسهلًا، حياكن الله جميعًا.

ونحمد الله سُبحَانَهُ إذ كتب لنا هذا اللقاء، ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا الاحتساب. وإذا احتسبنا زياراتنا ولقاءاتنا بحيث نبتغي الأجر والثواب من الله، فنحن في عمل صالح وفي عبادة وزيادة حسنات وإيمان، نسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه، كما أسأل ربي سبحانه أن يجعلنا ممن تحفهم الملائكة، وتنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، ويذكرهم الله فيمن عنده، نسأل الله من واسع فضله العظيم.

أخواتي في الله، إن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بالمسارعة إلى أسباب مغفرة الذنوب وإلى أسباب دخول الجنة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣]. أي: سارعوا، سابقوا إلى أسباب مغفرة ذنوبكم، وجنة عرضها السماوات والأرض.

وإن من أعظم أسباب مغفرة الذنوب: الاستغفار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

الاستغفار طلب المغفرة من الله، وقد كان نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كثير الاستغفار، مع أنه أكمل الخلق عبادة، وقد غفر له الله عَزَّوَجَلَّ ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فنحن أحق وأجدر أن نكثر من الاستغفار؛ لكثرة ذنوبنا.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: **«وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»** رواه البخاري (٦٣٠٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وروى الإمام مسلم (٢٧٠٢) عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**.

«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي» يشعر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالتقصير، مع أنه أكمل الخلق عبادة لربه، وهذا بخلافنا الذنوب متراكمة والأحوال متغيرة ولا نشعر بذلك، فما أكثر تقصيرنا وأشد غفلتنا!

ويقول عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: **«رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»** رواه أبو داود (١٥١٦)، وهو في «الصحيح المسند» (٧٤٢) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإن هذا ليسير على من يسره الله عليه.

فمائة من الاستغفار قد لا يستغرق نحو الست الدقائق، والبركة من الله عَزَّوَجَلَّ، ونعوذ بالله من الحرمان.

ونحن موقرات بالذنوب، ثبت عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، الحديث وفيه: **«يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»** رواه مسلم (٢٥٧٧).

وخاصة نحن النساء، فنحن أكثر ذنوبًا من الرجال، كما قال النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: **«يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»** فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: **«تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ»** قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ: فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ مَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ» رواه مسلم (٧٩) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ.

وحث النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث على الصدقة والإكثار من الاستغفار، وهذا دليل على أنهما يقيان من عذاب النار، أعاذنا الله وإياكن من عذاب النار.

الاستغفار ثماره عظيمة ونتائجه كبيرة؛ ولهذا أخواتي في الله في الأدلة ما يبين لنا ثمار ونتائج الاستغفار تحفيزًا للنفوس على الاهتمام بالاستغفار، فمن ثمار الاستغفار:

- أنه سبب لتيسير الأرزاق، قال سُبحَانَهُ عن نبي الله نوح عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢]. وهكذا نبي الله هود يحث قومه على الاستغفار:

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود: ٥٢].

فالاستغفار قوة إيمانية وقوة بدنية وسبب لتيسير للأرزاق.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»(٤/ ٣٢٩): وَمَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ –أي: صفة الاستغفار–يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَحَفِظَ عَلَيْهِ شَأْنَهُ وَقُوَّتَهُ. اهـ.

وقد استصعب سبل الأرزاق على كثير من الناس؛ لبعدهم عن الاستغفار.

والرزق أعم من رزق المال، فهو ليس مقصورًا على رزق المال، كما قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس، فالرزق أعم وأشمل، العافية رزق، الإيمان، العمل الصالح، طلب العلم، حفظ القرآن الكريم، الولد الصالح الذي يكون قرة عين لأبويه، هذه من الأرزاق.

❁ ومن ثمار الاستغفار: أنه مكفر للذنوب ويمحوها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ١٤]»** رواه الإمام أحمد (٧٩٥٢)، وهو في «الصحيح المسند» (١٣٤١) لوالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«صُقِلَ قَلْبُهُ» نظف وطهر من هذه النقطة.

فالاستغفار يمحو الذنوب ويزيلها.

❁ من ثمار الاستغفار أنه من جملة الحسنات، وقد قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤]. فالحسنة تمحو السيئة، فمن استغفر

الله، أو سبح، أو حمد الله، أو قرأ، أو ذكر الله، أو صلى، نرجو أن يكون ذلك مكفرًا للذنوب ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

فلنكثر من الحسنات حتى يزول عنا الذنوب وآثارها.

❁ من ثمار الاستغفار: أنه سبب لرفع الضيق والأحزان والكربة والمشاق، قال الله تَعَالَى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة: ١٥٢]، والله سُبحَانَهُ لا ينسب إليه النسيان، فعلمه محيط بكل شيء وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، فهذا يدل على أن الذكر في هذه الآية خاص يتضمن التوفيق من الله والمعونة وتيسير الأمور، فمن ضاق بها الحال تستغفر الله، تذكر الله، تطرق أسباب تفريج الكرب، والذي من أعظمه: الاستغفار.

ويقول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. ويدخل في التقوى: الاستغفار، فالاستغفار شأنه عظيم في جلب السعادة، في جلب السرور وانشراح الصدور.

إن ضاقَ صدرُكَ بالأحزان والألَمِ *** فالجأ لربِّكَ واسكُب دمعةَ النَّدَمِ
واذكُرهُ يذكُرْكَ واستغفِرهُ من زَللٍ *** واشكُر يزدْكَ من الخيرات والنِّعَمِ

ونحن في دار مليئة بالمتاعب والمصائب، فإذا لم نؤمن بالقدر، ولم نهتمَّ بِأسباب السرور وانشراح الصدور تضيق بنا الأرض ذرعًا، ولا نهنأ بفراغ البال، فما أعظم أخواتي في الله عبادة الاستغفار!

❁ الاستغفار صدقة من الصدقات، عن عَائِشَةَ، تَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ،**

وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ» رواه مسلم (١٠٠٧).

❁ حفظ الله لخلقه من نزول العذاب بسبب الاستغفار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأنفال].

❁ الاستغفار وقاية من النار، كما تقدم في قول النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» الحديث.

ولِعِظَم شأن الاستغفار شُرِعَ في أوقات معينة وفي أحوال مخصوصة من ذلك:

- الاستغفار بعد الاستقامة، يعني: بعد كل طاعة، قال تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصلت: ٦]. وهذا يدل على أنه مهما حرص الإنسان أن يكون تقيًّا لابد أن يكون هناك تقصير، وأنه يَجْبر هذا التقصير الاستغفار.

- الاستغفار بعد الصلاة، فعن ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» قَالَ الْوَلِيدُ-أحد رواة إسناد هذا الحديث-: فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: كَيْفَ الْاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ. رواه مسلم (٥٩١). يستغفر عقب الصلاة ثلاثًا، مع أن الصلاة نفسها من مكفرات الذنوب، ولكن هذا من باب توارد مكفرات الذنوب، ولأنه قد يحصل تقصير في بعض أعمال الصلاة، وهذا يُجبَر بالاستغفار.

- وبعد أداء فريضة الحج، مع أن الحج عبادة عظيمة، ومن مكفرات الذنوب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

[البقرة: ١٩٩]، وهذا أيضًا يدل على أنه قد يحصل تقصير، وأنه يستغفر الله ليجبر النقص الذي كان في العبادة، ودليلٌ على أن العبادة تُتْبَعُ بعبادةٍ أُخرى، فما يقول الإنسان: الحمد لله أديت العبادة، صليت، حججت... ، وينتهي، عبادة واستغفار حتى يأتي الموت.

- وشُرِعَ الاستغفار في آخر الليل، كما قال تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

كثير من الناس يكون في غفلة، في ضحك وسمر، وفي نوم، وهذا يقوم ويترك نومه ويصلي ويستغفر الله، هذا ثناء عظيم على المستغفرين بالأسحار، فلا نكون من المحرومين.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»** رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

فهذا وقت عظيم، وقت للاستغفار، يقول: **«اللّٰهم اغفر لي»**، يقوم، ويدعو ربه ويستغفر لنفسه ولأولاده وأصحابه، بل وللمؤمنين والمؤمنات: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]، ويدعو ويستغفر لأبويه، فقد قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ»** رواه الإمام أحمد (١٦/٣٥٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وهو في «الصحيح المسند» (١٣٨٩) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

«أَنَّى» اسم استفهام، أي: كيف لي هذا؟

«**بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**» لم ينسَه ولدُهُ، كشأن بعض الأولاد ينسون آباءهم من البر بعد وفاتهم.

ونرجو من الله أن يقيض لمن يستغفر لإخوانه المؤمنين والمؤمنات مَنْ يستغفر له في حياته وبعد مماته، وكم يعود من المنفعة لمن يستغفر للمؤمنين! منفعة عظيمة والجزاء من جنس العمل، فهذا قد يقيض الله له من يدعو له، وهكذا الذي يدعو لأبَوَيْهِ قد يقيض الله له أولادًا بارين لا ينسونه من الدعاء وخاصة بعد وفاته، كما في الحديث «**فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**».

وأصدق البر بالأبوين برهما بعد وفاتهما؛ لأنهما لا يريان ولا يطلعان على بر ولدهما، بالإضافة أنه إذا قلنا: اللّٰهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات واستغفرنا لآبائنا أن الملك يقول: ولك بمثل، كما في الحديث الذي رواه مسلم (٢٧٣٢) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ**». فما أكثر طرق الخير! ولكن المصيبة عندنا التقصير والتفريط في الخير، والذي من أعظمه قول: أستغفر الله.

- ومن المواضع التي يُشرع فيها الاستغفار: الاستغفار في الركوع والسجود، قالت عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. رواه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).
- وفي السجود يستغفر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: فِي سُجُودِهِ «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**». رواه مسلم (٤٨٣).

- وبين السجدتين يستغفر، عَنْ حُذَيْفَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: **«رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي»** رواه ابن ماجه(٨٩٧).

- وفي نهاية الصلاة يستغفر قبل السلام، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟ قَالَ: **«قُلْ: اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»** رواه البخاري (٨٣٤)، مسلم (٢٧٠٥).

وبهذا ما ينتهي المصلي من صلاته إلا وقد استغفر الله كثيرًا، فلا نفرط في الأذكار، وعلينا أن ندعو الله أن يجعل الصلاة قرة عين وراحة لقلوبنا، حتى نكثر فيها من الذكر والاستغفار، ونصلي بطمأنينة وخشوع، وحتى نشعر براحة وانشراح الصدر.

- وبعد السلام كذلك نقول: أستغفر الله، كما تقدم عن ثَوْبَانَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: **«اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»**.

- ويُشرع الاستغفار عند قرب الأجل، والآجال بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن قد يكون هناك أمارات، كالتقدم في السن، فالنّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول: **«أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»** رواه الترمذي (٣٥٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو في «الصحيح المسند» (١٢٨٥) لوالدي رَحِمَهُٱللَّهُ.

فالقليل من يتجاوز هذا السن، القليل مَنْ يكون مِنَ المعمَّرين، فيبلغ التسعين أو المائة، أو يتجاوز المائة، والغالب أنهم يموتون دون السبعين، النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ توفي عن ثلاث وستين، وأبو بكر وعمر توفيا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن ثلاث وستين، عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا توفيت عن ثلاث

وستين وأشهر[١]، وهكذا في تراجم العلماء لا نرى كثيرًا منهم يتجاوز السبعين، الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ توفي عن خمس وأربعين عامًا، ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ توفي عن ستين عامًا، فهذا هو الغالب، وما جرى عليهم سيجري علينا، نسأل الله حسن الخاتمة.

النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في آخر عمره نزلت عليه سورة النصر؛ إعلامًا له بقرب أجله، روى البخاري (٤٢٩٤)، ومسلم (٤٩٧٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ [٢]، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا [٣] وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ لَهُ»، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] «وَذَلِكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ»، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣]، فَقَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ».

هذه السورة آخر سورة نزلت في القرآن بكاملها، وهذا يدل على الحث على الاستغفار، وأن الاستغفار خاتمة الأعمال.

---

(١) قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة عائشة من «سير أعلام النبلاء»: وَمُدَّةُ عُمُرِهَا: ثَلَاثٌ وَسِتُّوْنَ سَنَةً، وَأَشْهُرٌ.

(٢) أي: غضب.

(٣) وهو صبي شاب.

ولا يعلم أحد متى يموت، فقد يأتي الموت على الشاب والصغير والكبير، فهذا يدل على أننا كلنا نستعد ليوم الرحيل بالاستغفار، فالآجال بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يدري الإنسان متى يموت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

النّبِيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في السنة التي توفي فيها عارضه جبريل بالقرآن مرتين، وكان يعارضه –أي: يدارسه–مرة في رمضان، فاستشعر النّبِيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بهذا قرب أجله، فمن دنا أجلُهُ ينبغي أن يكون قريبًا من الله عَزَّوَجَلَّ حتى يختم له بالخاتمة الحسنة، روى البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قَالَتْ: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَرْحَبًا بِابْنَتِي»** ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ، فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: أَسَرَّ إِلَيَّ: **«إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي القُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي»**.

وقول عائشة: (مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ) هذا دليل على حرص عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا على العلم النافع والفقه في الدين، ولم تنسَ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ذلك بعد وفاة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل سألتها مرةً أخرى.

وفي رواية للبخاري(٦٢٨٥) قالت عائشة: فَلَمَّا تُوُفِّيَ، قُلْتُ لَهَا: عَزَمْتُ عَلَيْكِ بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الحَقِّ–لأنها بمنزلة أمها–لَمَّا أَخْبَرْتِنِي، قَالَتْ: أَمَّا الآنَ فَنَعَمْ، فَأَخْبَرَتْنِي، قَالَتْ: أَمَّا حِينَ سَارَّنِي فِي الأَمْرِ الأَوَّلِ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَنِي: **«أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ قَدْ**

عَارَضَنِي بِهِ العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أَرَى الأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ» قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ، قَالَ: **«يَا فَاطِمَةُ، أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ المُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ»**.

فهكذا أخواتي في الله ختم الأعمال بالصالحات بالاستغفار، فالأعمال بخواتيمها.

وروى البخاري(٤٤٤٠)، ومسلم (٢٤٤٤)واللفظ له عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُسْنِدٌ إِلَى صَدْرِهَا وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: **«اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ»**.

قال ابن القيم في «مدارج السالكين»(٣/ ٤٠٢): اعْلَم أَنَّ التَّوْبَةَ نِهَايَةُ كُلِّ عَارِفٍ، وَغَايَةُ كُلِّ سَالِكٍ، وَكَمَا أَنَّهَا بِدَايَةٌ فَهِيَ نِهَايَةٌ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهَا فِي النِّهَايَةِ أَشَدُّ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي الْبِدَايَةِ، بَلْ هِيَ فِي النِّهَايَةِ فِي مَحَلِّ الضَّرُورَةِ..، وَالْعَارِفُ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَحُقُوقِهِ يَعْلَمُ أَنَّ الْعَبْدَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى التَّوْبَةِ فِي نِهَايَتِهِ.

ولهذا كَانَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ يختم سفره بالاستغفار، روى مسلم (١٣٤٥) عن أنس بن مالك قال: أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَا وَأَبُو طَلْحَةَ، وَصَفِيَّةُ رَدِيفَتُهُ عَلَى نَاقَتِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: **«آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»**، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ.

وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بختم نهاية اليوم بالاستغفار، عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ**

يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ». رواه البخاري(٦٣٠٦).

فعلينا أن نكثر من الاستغفار وأن نحرص على أدعية الاستغفار، وخاصة ما ثبت منها في الأدلة، كالآتي:

❁ عن طارق بن أَشيم أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي؟ قَالَ: قُلْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي **«وَيَجْمَعُ أَصَابِعَهُ إِلَّا الْإِبْهَامَ»** فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ. رواه مسلم (٢٦٩٧).

هذه أربع دعوات تجمع لك دنياك وآخرتك.

❁ عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أن النّبِيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: **«إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»** رواه الإمام أحمد (٢٨/٣٣٨).

ختم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذه الدعوات الجامعات بالاستغفار.

❁ عن حُصين والد عمران رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال له لما أسلم: **«قل اللَّهُمَّ! قني شَرّ نَفسِي واعزم لي على رشد أَمْرِي، اللَّهُمَّ! اغْفِر لي مَا أسررت وَمَا أعلنت وَمَا أَخْطَأت وَمَا عَمَدت وَمَا علمت وَمَا جهلت»** رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٣).

۞ عَنْ أَنَس بن مالك، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي خَيْرًا فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ فَقَالَ: **قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ،** قَالَ: فَعَقَدَ الْأَعْرَابِيُّ عَلَى يَدِهِ وَمَضَى.

فَتَفَكَّرَ ثُمَّ رَجَعَ فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: تَفَكَّرَ الْبَائِسُ فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ هَذَا لِلَّهِ فَمَا لِي؟

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا أَعْرَابِيُّ إِذَا قُلْتَ:**

سُبْحَانَ اللهِ قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ.

وَإِذَا قُلْتَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ.

وَإِذَا قُلْتَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ.

وَإِذَا قُلْتَ: اللهُ أَكْبَرُ قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ.

وَإِذَا قُلْتَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي قَالَ اللهُ: فَعَلْتُ.

وَإِذَا قُلْتَ: اللهُمَّ ارْحَمْنِي قَالَ اللهُ: فَعَلْتُ.

وَإِذَا قُلْتَ: اللهُمَّ ارْزُقْنِي قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ.

قَالَ: فَعَقَدَ الْأَعْرَابِيُّ عَلَى سَبْعٍ فِي يَدِهِ ثُمَّ وَلَّى.

رواه البيهقي في «شعب الإيمان»(٢/ ١٣٣).

وذكره الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»(٣٣٣٦).

ولنعلم أن الاستغفار لا يصلح إلا بالاعتراف بالذنب، والندم على فعله، ويدل لذلك حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المتفق عليه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) في حادثة الإفك، ونمر على بعض الفقرات من حديث الإفك للاستفادة والإفادة، نسأل الله أن يعيننا ويوفقنا.

حادثة الإفك تقص عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الحادثة، وتقول: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا مَعَهُ(١)، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ(٢) آذَنَ (٣) لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ(٤)، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ(٥) قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ(٦)، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ

---

(١)نستفيد: مشروعية القرعة في السفر لمن له أكثر من زوجة، ومن خرجت القرعة لها تخرج معه، وأن هذا ليس إلى هوى الرجل يأخذ من يشاء ويبقي من يشاء، فهذا الحديث فيه عدل الرجل بين نسائه، فالقرعة بين النساء في السفر مشروعة إلا إذا كان إحدى الزوجات لا تصلح للسفر، كمن تكون مريضة، فيأخذ من تصلح للسفر.

(٢)أي: نزلنا مكانًا بقرب المدينة.

(٣) «آذن» أي: أعلم.

(٤)من أجل التأهب فيجعل لهم وقتًا ليتأهبوا للرحيل.

(٥) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح صحيح مسلم»(١٧/١٠٤): أَمَّا الْعِقْدُ فَمَعْرُوفٌ، نَحْوَ الْقِلَادَةِ، وَالْجَزْعُ بِفَتْحِ الْجِيمِ وَإِسْكَانِ الزَّايِ، وَهُوَ خَرَزٌ يَمَانِيٌّ، وَأَمَّا ظَفَارِ فَبِفَتْحِ الظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِ الرَّاءِ وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْكَسْرِ، تَقُولُ: هَذِهِ ظَفَارِ، وَدَخَلْتُ ظَفَارِ، وَإِلَى ظفار بكسر الراء بلا تنوين فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا، وَهِيَ قَرْيَةٌ فِي الْيَمَنِ.

(٦) أي: رجعت من حيث جاءت.

اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ[١] مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ[٢]، فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي[٣]، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ[٤]، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الحِجَابِ[٥]، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي

---

(١) أي: يأكلن الشيء القليل.

(٢) وهذا فيه اعتذار منها حيث لم تصحب معها من يرافقها في ذهابها لقضاء حاجتها، فهي تعتذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «سير أعلام النبلاء» (٢/١٥٣): كَانَ شَأْنُ الإِفْكِ فِي غَزْوَةِ المُرَيْسِيْعِ، سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الهِجْرَةِ، وَعُمُرُهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَوْمَئِذٍ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً.

(٣) هذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من عادته أنه يكون قريبًا من أهله، ويتفقدهن، ولكن في هذا السفر لم يكن بالقرب ولم يتفقدها؛ لما في وراء ذلك من الابتلاءات، ورفعة الدرجات، وظهور أهل النفاق، روى البخاري (٥٢١١)، ومسلم (٢٤٤٥) عَنْ عَائِشَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتِ القُرْعَةُ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: أَلَا تَرْكَبِينَ اللَّيْلَةَ بَعِيرِي وَأَرْكَبُ بَعِيرَكِ، تَنْظُرِينَ وَأَنْظُرُ؟ فَقَالَتْ: بَلَى، فَرَكِبَتْ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمَلِ عَائِشَةَ وَعَلَيْهِ حَفْصَةُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلُوا، وَافْتَقَدَتْهُ عَائِشَةُ، فَلَمَّا نَزَلُوا جَعَلَتْ رِجْلَيْهَا بَيْنَ الإِذْخِرِ، وَتَقُولُ: يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيَّ عَقْرَبًا أَوْ حَيَّةً تَلْدَغُنِي، وَلا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئًا». ونستفيد من هذا الحديث: أنه لا بأس بمثل هذا من محادثة الرجل ومشيه في السفر مع بعض نسائه دون بعض، وأنه يُغضُّ الطرف فيه.

فنستفيد أنه لا بأس بذلك، وهذ قد يرد على الذهن: لماذا لم يعدل النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقد كان يحرص على العدل بين نسائه؟ يغتفر مثل هذا، فيجوز أن يساير بعض نسائه دون بعض في السفر.

(٤) هذا من رحمة الله، فالمصاب بالقلق لا يأتيه النوم، المصاب بالقلق يصاب بالأرَق؛ ولكن هذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ حتى يذهب عنها وحشة الانفراد، فغلبت عيناها فنامت.

(٥) الحجاب شُرع عند زواج النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بزينب.

وهذا يدل على مشروعية حجاب المرأة، وأنها تستتر.

الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ [١]، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لاَ أَرَى مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»[٢]، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ [٣]، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي البَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ [٤] فِي مِرْطِهَا [٥]، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ [٦]، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا [٧]، فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ [٨]، أَلَمْ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَلَّمَ فَقَالَ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»، فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ[٩]، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) وجعلوا يخوضون في حادثة الإفك.

(٢) «تي» من أسماء الإشارة، وقد كانت عائشة تشعر بجفاء من هذه العبارة، كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذا دخل سلم، وقال: «كَيْفَ تِيكُمْ؟»، فكانت عائشة تشعر بجفاءٍ من ذلك.

(٣) أي: أفاقت من مرضها ولم تكمل صحتها.

(٤) أي: سقطت.

(٥) المرط: الكساء.

(٦) دعت عليه.

(٧) هذا فيه فضل أهل بدر، وفيه الدفاع عن أهل الصلاح.

(٨) أي: يا هذه.

(٩) فيه استئذان المرأة من زوجها عند الخروج.

فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟[١] فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا [٢]، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا، قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلاَ نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ[٣]، فَدَعَا فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَرِيرَةَ [٤]، فَقَالَ: **«يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟»**، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنِ العَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ**

---

(١)أمها أم رومان رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٢)صبَّرتها، وآنستها، وأثنت عليها بأنها امرأة وضيئة جميلة، وأن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يحبها، وكانت أحب النساء إليه، وأن لها ضرائر فستبتلى.

(٣) علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من شدة ما يرى من حال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ من الضيق أراد التخفيف عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

ونستفيد منه: مشاورة الأعلى للأدنى.

وفي اختيار أسامة وعلي بالمشورة دون الكبار؛ لأن الصغار لا يكون عندهم عاطفية يقولون الحقيقة، بخلاف الكبار قد يجاملون باعتبار خبرتهم وتجاربهم ومراعاتهم للمصلحة قد لا يخبرون بالحقيقة.

(٤)جارية لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ [١]، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ-وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ-فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ، وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى المِنْبَرِ، فَنَزَلَ، فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ وَبَكَيْتُ يَوْمِي لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ[٢]، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي، إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي [٣]، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: **«يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»** [٤]، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً [٥]، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ

---

(١) وهو سيد الأوس.

(٢) لا ينقطع، دموع مستمرة وأرَقٌ مستمر.

(٣) هذا فيه المواساة بالبكاء، إذا وجد أخاه مهمومًا باكيًا.. يواسيه بالبكاء والهَمِّ، والرحمة. قال النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ» رواه البخاري (٦٠١٣)، ومسلم (٥٩٩٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

فهذه المرأة جلست عند عائشة تبكي.

(٤) هذا هو الشاهد.

(٥) انتهت الدموع وتوقفت.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ (١)، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ (٢)، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: **«يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللَّهَ، فَقَدْ**

---

(١) أي: الشدة.

(٢) ضحك من عظم البِشارة، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصحابته وأم المؤمنين وأبواها –أبو بكر وأم رومان– كانوا في ضيق شديد، والصحابة كانوا يتألم بعضهم لبعض؛ لأنهم كالجسد الواحد، ويتألمون لألم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما سُرِّي عن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ضحك، وقال: «يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللَّهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ»، وكان في هذا فرج عظيم.

ونستفيد من هذا: أن البشارة القوية ما تكون دفعة واحدة؛ لأنه قد يتأثر المصاب فينقلب الحال إلى أسوء، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يبشرها بالتدرج، بدأ بالضحك ثم بشرها ببراءتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهذا من الفرج بعد الشدة، ومن الفرج بعد الضيق، ومن فضائل أم المؤمنين أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل براءتها «وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ».

وقد عدَّ أهل العلم قاذف عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد نزول براءتها كافرًا، وهذه عقيدة يعتنقها كثير من الروافض –قاتلهم الله– اتهام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما هي منه بريئة.

وهذا معدود في فضائل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن الله برأها من فوق سبع سماوات.

بَرَّأَكِ اللَّهُ»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: لاَ وَاللَّهِ، لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيَاتِ (١)، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ (٢)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ (٣) أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٣] فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ (٤)، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ

ولما كانت عائشة رضي الله عنها مغلوبة في الاحتضار ودخل عليها ابن عباس وعدَّد بعض فضائِلها ذكر من ضمنِها براءتها، كما روى البخاري (٤٧٥٣) من طريق ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ، قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ وُجُوهِ المُسْلِمِينَ، قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ، قَالَ: «فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ»، وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلاَفَهُ، فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا.

وقولها رضي الله عنها: «أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ» لأن الثناء قد يورث العجب.

«وَمِنْ وُجُوهِ المُسْلِمِينَ» أي: له وجاهة.

«بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ» من اتقى فهو بخير وفي خير.

«فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» وهذا فيه تثبيت المحتضر أنه على خير إن شاء الله تَعَالَى، ف رضي الله عنها وأرضاها.

(١) هذا يستفاد منه الفرج بعد الشدة، وأن الشدة إذا اشتدت نزل الفرج بإذن الله عزوجل. فالمصاب ينتظر فرج الله ولا يقنط من رحمة الله.

(٢) بعد نزول براءتها كان أبو بكر رضي الله عنه ينفق على مسطح، فلما نزلت براءة عائشة قال: «وَاللَّهِ لا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ» لأنه خاض مع من خاض، وكذلك حسان بن ثابت أيضًا.

(٣) أي: اليسار.

(٤) أي: يستمر رضي الله عنه على إحسانه، نستفيد فائدة: أن من تعود على عطاء ثم حصل خصام أنه لا يقطع إحسانه، وهذا من الآداب، عادة الناس أنه إذا حصل خصام يحصل انقطاع وتهاجر، الله سبحانه يأمرنا بالعفو والاستمرار في الفضل والعطاء.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «**يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ**»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا [(١)]، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي [(٢)]، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالوَرَعِ.

ويدل أيضًا أن هذا الفعل –الاستمرار في العطاء بعد حصول الخصام–من أسباب الغفران؛ لهذا قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي» استسلام فورًا ومبادرة وامتثال لم يتردد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد نزول الآية.

(١) أي: أصون سمعي وبصري، ثم زكتها. وهذا فيه إنصاف أم المؤمنين زينب بنت جحش، وهذا حال نساء النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عدم غلبة الغيرة عليهن، فكن ملازمات على الانصاف.

ونظيره إسلام جويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وذلك في الحديث الآتي: عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَايَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ–أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ–وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً حُلْوَةً مُلَاحَةً لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْتَعِينُهُ فِي كِتَابَتِهَا، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي فَكَرِهْتُهَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَرَى مِنْهَا مَا رَأَيْتُ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ–أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ–فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِي. قَالَ: " فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟ ". قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ " قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: " قَدْ فَعَلْتُ ". قَالَتْ: وَخَرَجَ الْخَبَرُ إِلَى النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ، قَالَتْ: فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا. رواه الإمام أحمد (٤٣/ ٣٨٤)، وهو في «الصحيح المسند» (١٦٢٠) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

من كان عنده ورع يقيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مصارع السوء، ويعينه على اجتناب الشر، قال مطرف بن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ. أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٠٣)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨٣) بسند صحيح.

(٢)أي: تنافسها، وهذا ما يحصل بين الضرائر من التنافس.

هذا مختصر من مسائل حادثة الإفك، والتي من أعظمها انتظار الفرج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبراءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مما اتُّهمت به، فأنزل الله سبحانه في شأنها قرآن يتلى إلى يوم القيامة، فـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها.

والشاهد من هذا الحديث: أنه لا بد في التوبة من الاعتراف بالذنب.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وما أنت أعلم به منا، اللهم اغفر لنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

تم إلقاء هذه المحاضرة ولله الحمد والمنة.

ليلة السبت الموافق ٢٥/ من شهر جمادى الآخرة/ لعام ١٤٤٣ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.